

قَالَتْ نَمْلَةٌ

حين يصنع الصوت الصغير نجاة جماعة كاملة



تأملات في الوعي، والقيادة، والمسؤولية، وأخلاق القوة



تأليف:

﴿قَالَتْ ثَمَلَةٌ﴾

حِينَ يَصْنَعُ الصَّوْتُ الصَّغِيرُ نَجَاةَ جَمَاعَةٍ كَامِلَةٍ

تأملات في الوعي، والقيادة، والمسؤولية، وأخلاق القوة

تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

حين يضع القرآن أذننا عند مستوى النملة

في القرآن مشاهد ترمّ أمام العين كأنها عابرة، ثم إذا توقّف الإنسان عند كلمة منها وجد وراءها عالماً كاملاً من المعنى. ليست العظمة القرآنية دائماً في المشهد الضخم؛ ليست في البحر حين ينفلق وحده، ولا في الجبل حين يندك، ولا في العرش حين يُنقل، ولا في جيش سليمان حين يجتمع؛ فقد يختار القرآن في قلب واحد من أعظم مشاهد القوة في التاريخ أن يخفض عدسة السرد فجأة إلى الأرض، وأن يترك الملوك والجنود والطير والجن والإنس، ليجعلنا نسمع صوت مخلوق يكاد لا يرى تحت الأقدام:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنُكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنها لحظة شديدة الغرابة والجمال.

جيش عظيم يتحرك، وملك نبي يقوده، وسلطان لم يكن لغيره على ذلك النحو، ومع ذلك لم يكن محور اللحظة صوت الملك، بل صوت نملة.
لم يقل القرآن: «ومر سليمان بواد النمل»، وانتهى المشهد.

ولم يقل: «فابتعد النمل عن طريقه».

بل أعطانا خطاب النملة كاملاً، واحتفظ باسم جنسها، وسجّل نداءها، وأمرها، وتحذيرها، وتقديرها للخطر، بل وسجّل حتى إنصافها للجيش الذي يوشك أن يسحق قومها دون قصد.

ثم جاء بعد ذلك أثر الكلمة في سليمان:

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

إنها إذن ليست كلمة ضاعت في وادٍ بعيد.

لقد قيلت في الأسفل، ولكنها وصلت إلى الأعلى.

قالتها نملة، فسمعها نبي.

قالتها فردة، فنجأ بها مجتمع.

قالتها ضعيفة، فلم تتحول إلى صرخة حقد على الأقوياء.

رأت جيشاً هائلاً، فلم تفقد عقلها.

أبصرت الخطر، فلم تشغل بنفسها.

استشعرت الموت، فلم تتهم.

ولذلك يبدو أن أعجب ما في القصة ليس أن سليمان فهم كلام النملة فحسب، بل أن القرآن جعل لهذا الكلام قيمة تستحق أن تُتلى إلى قيام الساعة.

هذا الكتاب محاولة للوقوف طويلاً أمام كلمتين فقط:

﴿قَالَ ثَمَلَةٌ﴾.

لن نتعامل مع الثملة هنا بوصفها رمزاً منفصلاً عن ظاهر النص، ولن نحمل الآية ما لا تحتل من الإسقاطات المتكلفة، وإنما سننطلق من بناءها اللغوي والسياقي، ثم نفتح أبواب التأمل التي يسمح بها هذا البناء.

سننظر إلى الثملة وهي ترى، وتفهم، وتتوقع، وتنادي، وتأمر، وتحمي، وتنصف.
وسننظر إلى سليمان وهو يسمع.

وبين المتكلم الصغير والمستمع العظيم تنشأ واحدة من أبداع الصور القرآنية للقيادة: مجتمع يملك فيه الفرد حسَّ المسؤولية، وسلطة عظيمة لا تكون عظمتها مانعاً من سماع الصوت الآتي من تحت الأقدام.

ومن هنا يبدأ السؤال:

كم من حضارات سقطت لأن أحداً رأى الخطر ولم يقل؟

وكم من جماعات هلكت لأن من قال لم يُسمع؟

وكم من مؤسسات تحطمت لأن أصغر العاملين فيها كان يرى الخلل، بينما كان أكبر المسؤولين عنها مشغولاً بصورة النجاح؟

وكم من إنسان يمر في الحياة بقوة «سليمان وجنوده» دون أن ينتبه إلى أشياء صغيرة تحطم تحت خطواته «وهو لا يشعر»؟

ربما كان هذا هو أحد أوسع أبواب الآية:

أن العالم لا يحتاج فقط إلى قادة يتكلمون، بل يحتاج كذلك إلى أفراد يرون ويقولون، وإلى قادة يستطيعون سماع ما يقولونه.

الفصل الأول

﴿قَالَتْ﴾: البداية التي صنعت الفرق

قد تبدو كلمة «قالت» مجرد فعل سردي قصير، لكنها في هذا الموضع باب كامل من أبواب المعنى.

كانت النملة تستطيع أن ترى الجيش ثم تهرب.

وهذا هو السلوك الطبيعي الذي يتبادر إلى الذهن حين يقترب خطر هائل من كائن ضعيف: أن يبحث كل فرد عن نجاته.

لكن القرآن لا يقول: «فدخلت نملة مسكنها».

إنه يقول:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

وهنا انتقلت النملة من دائرة النجاة الفردية إلى دائرة المسؤولية الجماعية.

القول هو اللحظة التي خرج فيها إدراك الخطر من داخلها إلى المجال العام.

كانت المعرفة قبل الكلام معرفة فردية؛ فلما قالت صارت المعرفة ملكاً للجماعة.

وهذا فرق هائل.

فالمجتمعات لا تنجو دائماً لأن أفرادها أذكياء، وإنما تنجو حين تتحول معرفة الأفراد إلى معرفة مشتركة.

قد يرى الإنسان خللاً، لكن رؤيته وحدها لا تكفي.

قد يكتشف طبيب علامة مبكرة لمرض، أو يرى مهندس تصدعاً في بناء، أو يلاحظ موظف خللاً في نظام، أو يدرك فرد في أسرة بداية مشكلة؛ ولكن المعرفة إذا بقيت حبيسة صاحبها قد تموت فائدتها معه.

هناك مسافة أخلاقية بين أن ترى وأن تقول.

وقد قطعتها النملة.

إن الصمت أمام الخطر ليس دائماً حكمة، كما أن الكلام ليس دائماً فضيلة؛ لكن حين تكون المعلومة التي لديك متصلة بسلامة الآخرين، يصبح للكلمة وزن أخلاقي مختلف.

كانت النملة أول من رأى.

لكنها لم تجعل امتياز الرؤية ملكية خاصة.

لم تقل في نفسها: النجاة لمن انتبه.

ولم تجعل معرفتها تفوقاً على بقية النمل.

بل تحولت رؤيتها فوراً إلى رسالة إنقاذ.

وهنا نلمح أحد أجمل معاني المعرفة: أن المعرفة النبيلة هي المعرفة التي تتحول إلى
منفعة.

قد يعرف الإنسان أكثر من غيره، لكن قيمته لا تقاس فقط بما يعرفه، بل بما
يصنعه عليه في حياة الآخرين.

هناك من يرى الأخطار ثم يستثمرها في إثبات ذكائه بعد وقوعها:
«لقد قلت لكم».

وهناك من يرى الخطأ ثم ينتظر انهيار الآخرين كي يثبت صحة توقعه.
أما غلّة الوادي فلم يكن يهتمها أن يثبت المستقبل صدق تحليلها؛ كان يهتمها ألا
يقع المستقبل الذي تخشاه أصلاً.

وهذا فارق بين عقل يريد أن ينتصر لنفسه، وعقل يريد أن ينقذ جماعته.

لم تقل بعد الكارثة: ألم أحذركم؟

بل قالت قبلها:

﴿ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ﴾.

إن أعظم التحذيرات هي التي تنجح حتى ينسى الناس بعد ذلك حجم الكارثة التي
منعت وقوعها.

فحين يقع الحريق يظهر رجل الإطفاء بطلاً، لكن من أصلح التوصيلات الكهربائية قبل اشتعالها قد لا يعرف أحد أنه أنقذ المبنى كله.

الوقاية بطولة صامته.

والنملة هنا بطلة الوقاية.

والأكثر إدهاشاً أن القرآن لم يقل لنا ما اسمها.

لا لقب.

لا نسب.

لا منصب.

لا تاريخ شخصي.

قال فقط:

﴿نَمْلَةٌ﴾.

كأن القيمة في اللحظة لم تكن متوقفة على هوية القاتل، بل على صدق ما قاله.

وهذا درس يحتاجه الإنسان في كل عصر: لا تسأل أولاً «من قال؟» قبل أن

تسأل «ماذا قال؟».

كم من حقيقة ضاعت لأن قائلها صغير في أعين الناس.

وكم من خطأ كبر لأن قائله كبير.

القرآن هنا يعيد ترتيب ميزان الإصغاء.

قد يأتيك الخبر الذي يحفظ منظومة كاملة ممن لا يحمل لقباً.

وقد يُبصر أضعف الموجودين ما لا يراه أقواهم.

وقد يكون الصوت الذي يستحق الإصغاء إليه خارج دائرة الأسماء الالامعة كلها.

النملة لم تحتج إلى منصة.

كان وادها منصتها.

ولم تحتج إلى سلطة رسمية.

كانت الحقيقة سلطتها.

ولم تحتج إلى جمهور يستمع إعجاباً.

كان يكفي أن يستمع قومها لينجوا.

ومن هنا فإن أول معنى تفتحه أمامنا عبارة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هو أن المسؤولية تبدأ

حين يتحول الوعي إلى كلمة نافعة.

الفصل الثاني

نملة واحدة رأت ما لم تره الجماعة

تقول الآية:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾.

واحدة تتحدث إلى جماعة.

هذه الصورة وحدها جديرة بالتأمل.

لم يقل النص إن مجلساً من النمل اجتمع ليدرس الموقف.

ولم نرَ لجنة أزمة.

ولم تشكل هيئة لتقييم الخطر.

ظهرت فردة واحدة رأت، ثم بادرت.

وهنا تتجلى قيمة الفرد داخل الجماعة.

فالجماعات القوية ليست تلك التي يذوب فيها الفرد حتى يصبح نسخة صامتة من

الآخرين، وإنما التي يبقى فيها وعي كل فرد حياً.

قد يكون الجميع في اتجاه واحد، ويكون فرد واحد هو الذي يرى ما لا يرون.

وقد يكون آلاف الأشخاص منشغلين بالحركة اليومية، بينما يلتقط شخص واحد إشارة الخطر.

الجماعة التي تحتقر الفرد تضعف نفسها دون أن تدري، لأنها تلغي آلاف العيون التي كان يمكن أن ترى نيابة عنها.

كل فرد عين إضافية.

كل فرد أذن إضافية.

كل فرد احتمال جديد لاكتشاف ما فاتته الآخرون.

لكن ذلك لا يتحقق إلا إذا شعر الفرد بأن سلامة الجماعة شأنه هو.

كانت النملة تستطيع أن تقول: ليس لي شأن.

أنا مسؤولة عن نفسي.

غير أن هذا المنطق لم يظهر في المشهد.

فالانتماء الحقيقي لا يعني أن تستفيد من الجماعة عندما تحتاج إليها فقط، بل أن

تصبح يقطتك جزءاً من جهاز حمايتها.

ومن أعمق أزمات المجتمعات أن يتحول أعضاؤها من شركاء إلى متفرجين.

يرى أحدهم الخلل ثم يقول: «ليس من اختصاصي».

ويرى الثاني الضرر ثم يقول: «هناك من هو مسؤول».

ويرى الثالث الخطر ثم ينتظر الرابع.

حتى يقع الذي كان يمكن لفرد واحد أن يمنعه.

أما النملة فلم تسأل:

من المسؤول رسمياً عن التحذير؟

رأت واجب اللحظة، فقامت به.

وهنا يظهر مفهوم بالغ الأهمية: المبادرة الأخلاقية.

المبادرة ليست تعدياً على الأدوار إذا كان المقصود منها دفع ضرر واضح.

وهي لا تحتاج في كل مرة إلى إذن رسمي كي تبدأ.

بعض المواقف لا تحتل بروتوكولاً طويلاً؛ لأن الخطر أسرع من الإجراءات.

النملة لم تدخل في شرح سياسي لجغرافية الوادي، ولا في تحليل طويل لطبيعة

الجيش، بل نقلت الجماعة فوراً من المعرفة إلى الفعل.

وهذا ما يفعله الوعي الناضج: يعرف متى يكون الوقت وقت تفسير، ومتى يكون

الوقت وقت حركة.

هناك عقول تحسن التشخيص لكنها تفشل عند لحظة القرار.

تظل تشرح الخطر حتى يصل.

وتناقش الاحتمالات حتى تتحول إلى واقع.

أما النملة فاختصرت المسافة:

الخطر قادم.

الحماية في المساكن.

إذن:

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

ليس كل اختصار سذاجة.

أحياناً يكون الاختصار أعلى درجات النضج؛ لأن كثرة الكلام حين تكون الحقيقة واضحة قد تكون لوناً من تعطيل القرار.

واللافت أن القرآن لم يقل: «قالت ملكة النمل».

ولا نعلم من ظاهر الآية هل كانت صاحبة منصب في جماعتها أم لا.

وهذا الغموض نفسه يفتح معنى جميلاً: قد تنشأ القيادة في اللحظة من الكفاءة، لا من الموقع.

فالقيادة ليست دائماً كرسياً سابقاً على الحدث.

أحياناً يخلق الحدث قائده.

حين يرى أحدهم ما ينبغي رؤيته، ويقول ما ينبغي قوله، ويتقدم بالناس إلى القرار الصحيح، تتجلى فيه وظيفة القيادة ولو لم يحمل اسمها.

ولذلك كانت ثملة واحدة كافية في تلك اللحظة لتعيد اتجاه جماعة بأجلها.

العدد لا يصنع دائماً أثراً أكبر.

قد يكون الأثر العظيم قد بدأ بكائن واحد امتلك ثلاث خصال:

رؤية صحيحة.

وشجاعة في الكلام.

وحرصاً على الآخرين.

وهذه الثلاث وحدها يمكن أن تغير مصير جماعة.

الفصل الثالث

﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ﴾: منطق الانتماء

لم تقل النملة:

اهربوا.

بل قالت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ﴾.

إنها تنادي جماعتها باسمها الجامع.

وفي النداء شيء من استحضار الهوية المشتركة قبل إعطاء الأمر.

كأنها تستدعي فيهم وعي الجماعة:

أنتم مجتمع واحد، وانخطر القادم لا يفرق بين أفرادكم.

ومن هنا فإن سلامة الفرد مرتبطة بسلامة البنية التي ينتمي إليها.

هناك أوقات يصبح فيها الوعي بالانتماء ضرورة للبقاء.

فالإنسان في لحظات الرخاء يستطيع أن يتخيل نفسه مستقلاً تماماً عن حوله، لكن

الأزمات تكشف هشاشة هذا الوهم.

نحن نحيا داخل شبكات من الاعتماد المتبادل أكثر مما نتخيل.

الأمن الذي نستفيد منه صنعه آخرون.

والعلم الذي نستعمله ورثناه عن آخرين.

والمدينة التي نعيش فيها نتشارك طرقها ومائها وهواءها ونظامها.

وإذا انهارت البنية المشتركة فلن تنقذ الفرد عبقريته الخاصة بسهولة.

التملة لا تقول: «كل واحدة تبحث لنفسها عن حفرة».

بل:

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

المساكن معلومة.

والجماعة معلومة.

والحل جماعي.

ولذلك نخطابها ليس خطاب فزع فردي، بل إدارة منظمة لخطر جماعي.

ويمكن أن نرى في ذلك فرقاً بين المجتمع والحشد.

الحشد مجموعة موجودة في المكان نفسه.

أما المجتمع فهو مجموعة تتبادل الإشارات والمسؤوليات.

الحشد يركض حين يخاف.

أما المجتمع فيملك نظاماً للحركة.

والنملة في هذه اللحظة لم تضيف أفراداً إلى مكان واحد فحسب، بل كشفت أن بينهم رابطة تسمح لصوت فرد واحد أن يتحول إلى توجيه عام.

المجتمع الذي لا يستطيع فيه الفرد أن ينادي الجميع حين يرى الخطر مجتمع معرض لأن يفاجأ بما كان يمكن منعه.
وهنا يأتي سؤال بالغ الحساسية:

هل تسمح جماعاتنا لصوت الإنذار أن يرتفع؟
أم أنها لا تحب إلا الأصوات التي تقول إن كل شيء بخير؟
هناك جماعات تعاقب المتشائم ولو كان يرى الحقيقة.
وتكافئ المطمئن ولو كان لا يرى شيئاً.

وحين يحدث ذلك تتحول الوحدة إلى غطاء للعمى.
ليس كل من حذرك عدواً للمنظومة.
قد يكون أكثر الناس وفاءً لها.

فن يحب السفينة حقاً لا يخفي الثقب حتى لا يزعج الركاب.
ومن يحب جماعته لا يجعل «المعنويات» حجة لإنكار الخطر.
النملة لم تقل للنمل: لا تخافوا، نحن أقوىاء.

ولم تحاول صناعة طمأنينة كاذبة.

اعترفت بالتهديد.

لكنها في الوقت نفسه لم تنشر الفوضى.

وهذه هي المعادلة الدقيقة:

أن تقول الحقيقة دون أن تصنع الهلع.

هناك تحذير مسؤول، وهناك تخويف عبثي.

التحذير المسؤول يحدد الخطر ويقدم مسار النجاة.

أما التخويف فيضخم الخطر ويترك الناس بلا طريق.

والتملة فعلت الأول:

هذا هو الخطر.

وهذا هو الحل.

وهذه هي المسافة كلها بين القائد الذي يوقظ والقائد الذي يرعب.

الفصل الرابع

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾: حين يكون الذكاء في العودة إلى الداخل

العجيب في الآية أن النملة لا تقترح مواجهة الجيش.

فالمواجهة هنا ليست شجاعة، بل انتحار.

ولا تدعو إلى الوقوف في طريق سليمان احتجاجاً.

ولا تطلب من جماعتها أن تظهر وجودها للجيش.

كل ذلك أكبر من طبيعة الموقف.

قالت ببساطة:

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

وهذا درس بالغ الدقة في فهم حدود القوة.

ليس النجاح أن تواجه كل شيء..

وأحياناً تكون الحكمة في أن تعرف المعركة التي لا ينبغي أن تدخلها.

من أخطر أوهام الإنسان أن يظن أن الانسحاب من الخطر دائماً جبن.

الحكمة لا تقاس بمقدار الضجيج الذي نصنعه، بل بمقدار المحافظة على ما ينبغي الحفاظ عليه.

النملة لا تريد تسجيل موقف بطولي.

تريد إبقاء جماعتها حية.

وهناك فرق بين من يصنع القرار لصورته، ومن يصنعه للنتيجة.

قد يخسر الناس لأن قائدهم يحب أن يبدو شجاعاً.

وقد يهلكون لأن صاحب القرار يفضل خطاب البطولة على حساب النجاة.

أما هنا فليس في الكلام استعراض.

هناك تقدير هادئ لموازن القوى.

جيش سليمان قادم.

النمل ضعيف أمام الأقدام.

المساكن حصن مناسب.

فالقرار الطبيعي:

الاحتماء.

إنها واقعية بلا هزيمة نفسية.

فالواقعية لا تعني أن ترى نفسك حقيراً، وإنما أن ترى حجمك الحقيقي في الموقف الحقيقي.

الثملة تعرف أن الجيش أقوى منها، لكنها لا تستنتج من ذلك أن حياتها بلا قيمة. بل العكس تماماً.

لأن حياتها مهمة، تبحث لها عن الحماية الممكنة. ومن هنا يمكن أن نرى أن حفظ النفس والجماعة لا يحتاج دائماً إلى فعل عظيم؛ قد يكون الحل موجوداً في البنية التي سبق إعدادها.

﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾.

لم تقل: ابحثوا عن ملاجئ جديدة. لديهم مساكن.

والحكمة أن يعرف المجتمع كيف يستخدم موارده القائمة عند الأزمات. فكم من أناس يطلبون في ساعة الخطر حلولاً لم يبنوها قبل الخطر. أما المجتمع المستعد فتكون في بنيته اليومية عناصر نجاته. المسكن الذي يبدو في الأيام العادية مجرد مكان للحياة يصبح في لحظة الخطر مكاناً للحماية.

وهكذا البنى النافعة عموماً: قيمتها الحقيقية قد لا تظهر إلا عند الحاجة.

المؤسسة الجيدة.

العلاقة المتينة.

الاحتياط المالي.

المعرفة.

الثقة.

النظام.

كلها «مساكن» معنوية يعود إليها الإنسان حين تمر فوقه جيوش الطوارئ.

والآية تعلمنا كذلك أن الوقاية ليست شعوراً، بل سلوك.

لم تقل النملة:

انتبهوا.

فقط.

بل نقلت الانتباه إلى فعل محدد.

وهذا جوهر الإدارة الرشيدة للمخاطر.

الوعي الذي لا يتبعه إجراء يظل معرفة ناقصة الأثر.

قد يعرف الإنسان أن عادة ما تضره ولا يغيرها.

وقد تعرف مؤسسة موضع الضعف ولا تصلحه.

وقد يعرف مجتمع أنه يتجه نحو أزمة ثم يظل يناقشها حتى تقع.

النجاة لا تصنعها المعرفة وحدها.

تصنعها المعرفة حين تتحول إلى إجراء.

قالت:

﴿ادْخُلُوا﴾.

إنه فعل.

والأفعال هي الجسر الذي تعبر عليه الأفكار إلى الواقع.

الفصل الخامس

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: معرفة طبيعة الخطر

لم تستخدم النملة كلمة عامة.

لم تقل: لئلا يؤذوكم.

قالت:

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

والحطم يحمل معنى الكسر والدق.

وكان لغة التحذير هنا متناسبة تماماً مع طبيعة المخلوق الصغير والخطر القادم عليه

من حركة جيش كبير.

إنها لا ترى الشر المجرد.

بل تعرف كيف سيقع الضرر.

وهذه مرتبة متقدمة من الوعي.

ليس كافياً أن تقول إن هناك مشكلة.

الوعي الأدق يسأل:

ما صورة المشكلة؟

كيف ستقع؟

أين نقطة الضعف؟

ما الآلية التي سيصل بها الضرر إلينا؟

كلها كان تعريف الخطر أكثر دقة كان القرار أكثر دقة.

والخوف الغامض أشد إنهاكاً من الخطر المحدد.

عندما لا يعرف الإنسان مما يخاف، يصبح كل شيء مخيفاً.

أما حين يعرف طبيعة التهديد، يستطيع بناء استجابة تناسبه.

التملة تعرف أن الخطر ليس أسراً.

ولا مواجهة مقصودة.

ولا عدواناً مخططاً.

إنه «حطم» ناشئ عن مرور أجسام ضخمة فوق أجسام بالغة الصغر.

ومن هنا جاءت الاستجابة مناسبة تماماً:

الدخول إلى المساكن.

وهذه قاعدة تصلح لكثير من شؤون الحياة:

لا تبني الحل قبل أن تعرف طبيعة المشكلة.

كم من علاج فشل لأنه عاجل غير المرض.

وكم من مؤسسة غيرت نظاماً كاملاً بسبب خلل صغير في جزء محدد.

وكم من علاقات تحطمت لأن الطرفين حاربا تفسيراً خاطئاً لما يحدث بينهما.

الدقة رحمة.

كلها أحسنت تسمية المشكلة، قلّ الضرر الناشئ عن علاجها.

والنملة كانت دقيقة.

لكن في كلمة ﴿يَحْطِمْكُمْ﴾ معنى آخر شديد التأثير:

أحياناً لا تحتاج الأشياء الصغيرة إلى عدو كي تُدمر.

يكفي أن يمر بها الكبير دون أن يشعر.

وهذه ربما من أخطر صور القوة في العالم.

ليست المشكلة دائماً في قوة تريد الشر.

بل قد تكون في قوة لا ترى الضعيف أصلاً.

يمكن لقرار إداري أن يحطم حياة موظفين لم يفكر فيهم واضعه.

وقد يشق مشروع ضخم طريقه فوق بيوت صغار الناس لأنهم خارج مجال الرؤية.

وقد تسحق المنافسة الاقتصادية فئات كاملة دون أن يحمل أحد تجاهها عداوة

شخصية.

وقد يجرح الأب ابنه بكلمة لم يقصدها.

وقد يؤذي المعلم تلميذاً بإشارة عابرة.

وقد يسحق الناجح قلباً قريباً منه بانشغاله بنفسه، لا بعداوته له.

كل ذلك يدخل في عالم:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومن هنا يصبح الوعي بالهشاشة جزءاً من أخلاق القوة.

ليس كافياً أن تقول:

أنا لم أقصد.

ينبغي أحياناً أن تسأل قبل الفعل:

من الذي يمكن أن يتضرر من خطوتي وإن لم أقصد ضرره؟

إن العالم مليء بكائنات ومصالح وأرواح أضعف من أن تجعل نفسها مرئية للقوي

دائماً.

والأخلاق الرفيعة تبدأ حين يتعلم القادر أن ينظر إلى الأرض قبل أن يخطو.

الفصل السادس

﴿سَلِيمَانُ وَجُنُودُهُ﴾: معرفة الواقع بلا تهويل

سمت النملة مصدر الخطر:

﴿سَلِيمَانُ وَجُنُودُهُ﴾.

لم تقل: جيش مخيف.

ولم تنشر خبراً غامضاً.

إنها تعرف من القادم.

وفي معرفة الاسم شيء من السيطرة العقلية على الخوف.

الذعر يحب المجهول.

أما الوعي فيسمي الأشياء.

وهنا نلاحظ أن النملة لم تتحدث بعبارات أسطورية عن الجيش، ولم تضيف إليه ما

ليس فيه.

لم تقل: جاء من يريد هلاكنا.

بل قالت فقط ما تراه.

سليمان وجنوده قادمون، ويمكن لمروهم أن يحطمكم.

إنها لا تتجاوز المعلومة المتاحة.

وهذا من أنبل أخلاق الخبر.

حين يكون المجتمع في خطر تنشأ قابلية عالية للشائعة.

فالنخوف يفتح شهية الخيال.

وقد تبدأ المعلومة صغيرة، ثم يحملها كل لسان زيادة، حتى يصبح الناس أسرى

رواية لم تقع.

أما خطاب التلمة فمحدد.

اسم.

خطر.

حل.

لا شيء زائداً.

وهذا النموذج القرآني شديد الأهمية في زمن تتضاعف فيه الأخبار كل لحظة.

ليست المسؤولية أن تكون أول من ينقل.

بل أن تكون أميناً فيما تنقل.

والأمانة لا تعني فقط ألا تكذب، بل ألا توسع دائرة المعلومة إلى ما لا تعلم.

النملة ترى إمكانية الحطم.

فتقول الحطم.

لكنها لا ترى نية العدوان.

فلا تنسب العدوان.

وهنا تبلغ الكلمة ذروة نزاقتها.

لأن أكثر الناس يستطيعون الإنصاف في الظروف الهادئة، أما لحظة الخوف فتكشف مقدار العدل الحقيقي في النفس.

حين تهددك قوة ما، يصبح من السهل أن تنسب إليها أسوأ النيات.

النملة لم تفعل.

قالت:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وسنقف عند هذه العبارة طويلاً، لأنها ربما كانت أعجب ما قالته تلك النملة.

الفصل السابع

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: عدالة الضعيف تجاه القوي

كانت النملة في لحظة تهديد وجودي.

الجيش الذي يقترب قادر بحركته وحدها على أن يحطم جماعتها.

ومع ذلك ختمت تحذيرها بجملة تدفع تهمة التعمد عن ذلك الجيش:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي إن الحطم المحتمل لن يكون - بحسب ما تفهمه من الموقف - فعلاً مقصوداً.

يا لعظمة الإنصاف حين يصدر عن مهدد!

من السهل على الآمن أن يكون عادلاً.

لكن أن تتصف من تخشى أن يحطملك، فهذا مقام أعلى.

الخوف عادة يضيق زاوية الرؤية.

يجعل الإنسان يرى العالم في ثنائية حادة:

أنا والعدو.

النجاة والهلاك.

الخير والشر.

لكن النملة أبقت مساحة للتعقيد.

هناك ضرر محتمل، نعم.

لكن ليس كل ضرر عدواناً.

وهذه قاعدة إنسانية كبيرة.

فكم من الخصومات نشأت لأن أحد الطرفين خلط بين الأثر والقصد.

تألم، فاستنتج أن الآخر أراد ألمه.

خسر، فافترض أن الآخر خطط لخسارته.

أهمّل، فظن أن الإهمال احتقار متعمد.

ولا شك أن النيات السيئة موجودة، والعدوان حقيقة، والظلم واقع، لكن العدالة

تقتضي ألا ننسب القصد إلا حيث يقوم عليه دليل.

من الممكن أن نتضرر من إنسان لم يرد ضررك.

ومن الممكن أن تخطئ في حق غيرك دون أن تعلم.

وهذه المنطقة بين «الضرر» و«التعمد» هي التي يحتاج الإنسان إلى وعي أخلاقي

كبير كي يميزها.

قالت النملة:

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

إذن هي لم تنكر الخطر.

وقالت:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلم تحول الخطر إلى تهمة.

يا لهذه الموازنة!

لا سذاجة تنكر الضرر.

ولا مرارة تخترع النيات.

وهذا نموذج بالغ النضج في إدارة العلاقات والصراعات.

بعض الناس لكي يحسن الظن ينكر الوقائع.

وبعضهم لكي يقرأ الوقائع يسيء الظن.

أما النملة فجمعت الأمرين:

أدركت الأثر المحتمل بكامل وضوحه.

وأبقت النية في موضعها العادل.

وهذا هو حسن الظن الناضج.

ليس حسن الظن أن تضع رأسك تحت القدم القادمة وتقول: إنهم طيبون.

بل أن تدخل مسكنك، وتحجى نفسك، ثم لا تتهمهم بما لم يثبت أنهم أرادوه.

تلك صيغة أخلاقية شديدة التوازن:

خذ احتياطك من الفعل، ولا تظلم الفاعل في نيته.

ما أعظم المسافة بين هذين الأمرين.

يمكنك أن تضع حدوداً دون كراهية.

وأن تحجى نفسك دون اقتراء.

وأن ترفض الضرر دون أن تتوسع في شيطنة من صدر عنه.

وهكذا نجد في كلام النملة مدرسة كاملة في عدالة الضعفاء.

فالضعف لا يمنح الإنسان حق الظلم.

والتعرض للخطر لا يعطيه رخصة للكذب.

والخوف لا يسقط عنه واجب الإنصاف.

ومن هنا كانت هذه النملة كبيرة في ميزان الأخلاق وإن كانت صغيرة في ميزان

الحجم.

الفصل الثامن

نملة لم تتجُ وحدها

لنعد إلى اللحظة الأولى.

ربما كان بوسع النملة أن تكون أول الناجين.

فهي التي رأت الجيش قبل غيرها.

كانت لديها ميزة معلوماتية.

وكان يمكن أن تستعمل هذه الميزة لمصلحتها الشخصية.

لكنها لم تفعل.

هذه نقطة لا ينبغي تجاوزها سريعاً.

فأحد الامتحانات الأخلاقية الدقيقة للإنسان هو: ماذا يفعل بالمعلومة التي تتيح له

النجاة قبل الآخرين؟

هل يحتكرها؟

هل يستفيد منها وحده؟

هل يتاجر بها؟

هل يؤخرها كي يحسن موقعه؟

أم يحولها فوراً إلى خير عام؟

النملة اختارت الخيار الأخير.

وفي عالم البشر قد تكون المعلومات أثمن من المال.

من يعرف مبكراً بوجود أزمة، أو تغيير، أو خطر، أو فرصة، يملك شيئاً يمكن أن

يغير مصير الآخرين.

ومن هنا تصبح أخلاق تداول المعرفة جزءاً من العدالة.

إن من يعرف أن منتجاً خطراً ثم يصمت يختلف عن الذي لا يعلم.

ومن يعرف أن قراراً سيضر فئة ضعيفة ثم يخفي الأمر يختلف عن الذي فوجئ

به.

ومن يرى مقدمات الانهيار ثم يطمئن الناس كذباً ليس كمن لم يره.

المعرفة مسؤولية بقدر ما هي امتياز.

وهذا ما جسده النملة دون خطاب نظري.

قالت.

كان بإمكانها ألا تقول.

وهذا بالضبط ما يجعل قولها أخلاقياً.

فالقيمة الأخلاقية تظهر حيث يكون للإنسان خيار.

إن الحياة الاجتماعية كلها قائمة على آلاف الأفعال الصغيرة من هذا النوع.

شخص يرى حفرة في الطريق فينبه القادم.

وطبيب يبلغ مريضه باحتمال مهم.

وموظف ينبه مؤسسته إلى خلل.

ومعلم يرى انكسار طفل فيتدخل.

وأخ يرى أخاه مقبلاً على قرار مؤذ فيحدثه.

هذه أفعال صغيرة إذا قيس كل واحد منها بمفرده، لكنها تبني ذلك الشيء العظيم الذي نسميه «الثقة».

المجتمع الذي يعرف أفراده أن من رأى خطراً سيقول، مجتمع أكثر أماناً من مجتمع يظن فيه كل فرد أن الآخرين قد يتركونه يسقط لأن المشكلة لا تخصهم.

ولذلك لعل أعظم ما صنعه النملة لم يكن مجرد التحذير، بل تعزيز معنى خفي في جماعتها:

لسنا وحدنا.

هناك من ينظر.

هناك من ينبه.

هناك من يعنيه أن ننجو.

وهذه الجملة غير المنطوقة أساس عميق لكل مجتمع سليم.

الفصل التاسع

قيادة بلا ضجيج

حين قالت النملة:

﴿ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ﴾،

مارست وظيفة قيادية واضحة.

لكن تأمل مقدار الاختصار.

لا مقدمة.

لا حديث عن الذات.

لا تذكير بمكانتها.

لا خطاب طويل.

لم تقل:

لقد كنت دائماً أحذركم.

ولم تقل:

إنني أعرف ما لا تعرفون.

ولم تضع اسمها في صدر الرسالة.

كل اهتمامها متجه نحو الموضوع.

هذه واحدة من علامات القيادة الناضجة: اختفاء الأنا حين تظهر المهمة.

كلها عظمت الأنا صغر الموضوع.

وقد تتحول الأزمات عند بعض القادة إلى مسارح لإظهار أنفسهم بدل حماية من

يقودون.

أما النملة فلا أثر لذاتها في الكلام إلا بمقدار قيامها بالوظيفة.

بل إن القرآن نفسه لم يسمها.

إنها قيادة لا تحتاج إلى تخليد الاسم لأن النتيجة أهم من الصورة.

ويمكن أن نستخرج من خطابها عناصر بالغة الوضوح:

أولاً: رصدت التحول في البيئة.

ثانياً: قدرت الخطر.

ثالثاً: حددت الفئة المهددة.

رابعاً: قدمت توجيهاً قابلاً للتنفيذ.

خامساً: شرحت سبب التوجيه.

سادساً: امتنعت عن اتهام مصدر الخطر بما لم تعلم.

كم من خطاب إداري أو سياسي طويل يفتقد نصف هذه العناصر!

ليس طول الكلام دليلاً على عمق القيادة.

وقد تكون خمس كلمات صادرة في الوقت المناسب أكثر قيمة من خمسين صفحة بعد فوات الأوان.

إن الكفاءة هنا ليست في البلاغة الشكلية، مع أن العبارة في غاية البلاغة، وإنما في مطابقة الكلام للحاجة.

الأزمة تريد وضوحاً.

والناس في لحظة الخطر يحتاجون إلى معرفة:

ماذا يحدث؟

ماذا نفعل؟

ولماذا؟

والتملة أجابت عن الثلاثة.

هناك جيش.

ادخلوا مساكنكم.

كي لا يحطمكم.

انتهى.

كل ما يحتاجه القرار حاضراً.

والأجمل أنها لم تستعمل الخوف لتأسيس سلطة دائمة على الآخرين.

لم تقل بعد انتهاء الخطر:

بما أنني أنقذتكم فعليكم طاعتي من الآن فصاعداً.

هذا النوع من الاستغلال بشري جداً.

يصنع أحدهم خدمة حقيقية، ثم يحولها إلى دين دائم في رقاب الآخرين.

أما القيادة التي تنبع من المسؤولية فلا تحتاج إلى تحويل الفضل إلى وسيلة سيطرة.

تفعل ما يجب، ثم تمضي.

ولهذا تبدو النملة في المشهد مثل نموذج القيادة في أنقى صورها:

يقظة حين يغفل الآخرون.

مبادرة حين يتردد الآخرون.

كلمة حين يحتاج الموقف إلى كلمة.

ثم لا شيء من احتفال الذات بنفسها.

الفصل العاشر

حين يسمع الملك صوت النملة

بعد خطاب النملة تأتي واحدة من أجمل لحظات القصة:

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

لو تأملنا المشهد من ناحية السلطة لوجدنا مفارقة هائلة.

في الأعلى ملك.

وفي الأسفل نملة.

ومع ذلك وصل القول.

هذه ليست فقط معجزة فهم سليمان لمنطق المخلوقات التي علمه الله إياها؛ إنها داخل بنية القصة صورة أخاذة عن معنى أن تكون القوة قادرة على السماع.

كم يصبح السلطان خطيراً إذا لم يسمع إلا أصوات من حوله!

وكم تصبح القيادة آمنة حين تصل إليها حتى الإشارات القادمة من الهامش.

إن المسافة بين القائد والحقيقة لا تقاس بالأمتار، بل بعدد الطبقات التي تمنع الأصوات من الوصول إليه.

قد يكون المسؤول جالساً على بعد غرفة واحدة من المشكلة، لكنه أبعد عنها من قارة؛ لأن النظام الذي حوله لا يسمح إلا بالأخبار المريحة.

وكان يمكن لجيش سليمان أن يمر، والنمل ينسحب، وينتهي المشهد دون أن يدري الملك شيئاً.

لكن الله أكرمه بعلم جعل ذلك الصوت يصل إليه.

فتبسم.

وفي التبسم جمال أخلاقي.

لم يغضب من النملة لأنها قالت: ﴿لَا يَخْطِئُكُمْ﴾.

لم يعتبر تحذيرها إساءة إلى صورة الجيش.

لم يقل: كيف تتهمون جنودي؟

فهي أصلاً لم تتهم.

لكنه كذلك لم يتضخم أمام خوف الكائن الصغير.

بل استقبل المشهد بابتسامة.

القائد غير الآمن نفسياً قد يرى كل تحذير إهانة.

وكل ملاحظة تمرداً.

وكل نقد انتقاصاً.

أما الإنسان الواثق فلا يخاف من الحقيقة الصغيرة.

يسمعها.

وقد يبتسم لها.

إنه لا يحتاج إلى أن يكون كل من حوله صامتاً حتى يشعر بعظمته.

وربما كان من أبداع ما في الآية أن النملة قالت ما قالت وهي لا تدري على الأرجح

أن سليمان يسمعها.

كانت تتحدث لقومها، لا للملك.

وهذا يجعل كلامها أكثر صفاء.

لم تكن تصنع رسالة محسوبة للسلطة.

ولا تحاول إثارة إعجاب سليمان بعدالتها.

كانت كما هي.

وهنا سمعها.

كم من حقائق صافية لا نسمعها حين يقال الكلام أماناً مباشرة، بينما تظهر حين

يتحدث الناس في دوائرهم الطبيعية!

ولهذا يحتاج القائد إلى قنوات تجعله يسمع الواقع لا النسخة المعدة له.

أن يسمع الناس وهم يتحدثون عن أثر قراراته، لا أن يكتفي بتقارير الذين يريدون رضاه.

النملة لم تقدم تقريراً رسمياً.

لكن كلماتها قالت لسليمان شيئاً مهماً:

مرور جيشك يمكن أن يؤثر في حياة كائنات لا تريد إيذاءها.

وفي لحظة واحدة أصبح صوت الأضعف جزءاً من وعي الأقوى.

هذه حضارة أخلاقية كاملة في مشهد واحد.

الفصل الحادي عشر

القوة التي لا تريد الأذى قد تؤدي

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هذه العبارة تفتح باباً مهماً في فهم المسؤولية.

فليس كل ضرر نتسبب فيه نريده.

لكن عدم إرادة الضرر لا يلغي دائماً الحاجة إلى الانتباه إليه.

هذه حقيقة تزداد أهمية كلما زادت قوة الإنسان.

كلما كان أثر أفعالك واسعاً، اتسعت دائرة الأشياء التي يجب أن تنتبه إليها.

من لا يملك إلا نفسه قد تكون أخطاؤه محدودة.

أما من يملك سلطة أو مالا أو قراراً أو جمهوراً أو مؤسسة، فقد تمتد خطوته إلى

حياة أناس لا يعرف أسماءهم.

القوة تكبر المسافة بين الفعل ونتائجه.

وقد يصدر القرار في غرفة فاخرة، ثم تصل آثاره إلى قرية بعيدة.

وقد يضغط شخص زراً في نظام، فتتغير حياة آلاف.

وكلما اتسعت هذه المسافة ازداد خطر عبارة:

«لم أكن أعلم».

ومن هنا تأتي قيمة أن يحيط أصحاب القوة أنفسهم بمن يكشف لهم النتائج البعيدة لأفعالهم.

إن صوت النملة في قصة سليمان هو صوت «الأثر غير المرئي».

هو الطرف الذي كان يمكن ألا يراه الجيش.

ومن المهم لكل سلطة أن تسأل:

أين غل الوادي في قراراتنا؟

من هم الذين لا يظهرون في التقارير الكبيرة؟

من يتأثرون بما نفعل، لكن لا يملكون منصة يصلون بها إلينا؟

من يقع تحت القدم لا أمام العين؟

هذه ليست أسئلة سياسية فقط.

إنها أسرية وتربوية واقتصادية وثقافية.

الأب قوي في البيت.

وقد لا يشعر بحجم أثر كلماته.

المعلم قوي في الفصل.

وقد لا يدرك أن تعليقاً ساخراً عاش في نفس تلميذ سنوات.

الكاتب يملك جمهوراً.

وقد لا ينتبه إلى أن عباراته تصنع رؤى لدى آلاف.

صاحب العمل يملك قراراً.

وقد تكون دقيقة واحدة من قراره مساوية لأشهر من القلق في بيت موظف.

كل هؤلاء يحتاجون إلى «ثملة» تخبرهم بما لا يشعرون.

وكلها زادت قوتها كان علينا أن نكون أكثر حساسية تجاه الهشاشة الموجودة من

حولنا.

ليس لأن القوة شر.

فسلیمان نبی کریم، وجنوده ليسوا جيش ظلم في السياق.

لكن حتى القوة الصالحة تحتاج إلى وعي بأثرها.

وهذه دقة مدهشة.

فالقرآن لا يعطينا عالماً بسيطاً فيه أختيار لا يصدر عنهم أذى محتمل، وأشرار

وحدهم يصنعون الضرر.

قد يأتي الضرر من حركة مشروعة في ذاتها.

والوعي الأخلاقي الأعلى هو الذي يلتقط هذه المنطقة.

أن تكون صالح النية أمر عظيم.

لكن اكتمال المسؤولية يحتاج كذلك إلى أن تسأل عن النتائج.

الفصل الثاني عشر

لا تحتقر التحذير لأن صاحبه صغير

لو قسنا المشهد بمقاييس القوة المادية، فليس هناك تناسب بين الطرفين.

جيش سليمان من جهة.

ونملة من جهة.

لكن القرآن لم يزن الأصوات بهذا الميزان.

القصة نفسها تخلد كلام النملة، بينما أسماء عدد هائل ممن كانوا في الجيش لم

تذكر.

وهذا انقلاب عجيب في موازين الشهرة.

كم من شخص كان يوماً في موكب عظيم فلم يبق له اسم.

وكم من نملة مجهولة صار قولها قرآناً يتلى.

فالقيمة ليست دائماً في حجم المشهد الذي تقف فيه، بل في صدق الوظيفة التي

أديتها.

ومن هنا تصبح الآية علاجاً عميقاً لنزعة الاحتقار.

نحن نميل إلى تقدير الرسائل بحسب أصحابها.

إذا تحدث مشهور أنصتنا.

وإذا تكلم إنسان بسيط مررنا.

لكن الحقيقة لا تلتزم بالطبقات الاجتماعية.

قد يكتشف العامل خللاً لم يكتشفه المدير.

وقد يسأل الطفل سؤالاً يهز يقين الكبير.

وقد ترى المرأة في البيت ما لا يراه المشغولون خارجه.

وقد يلتقط شخص بعيد عن مركز القرار شيئاً عجزت المكاتب العليا عن ملاحظته.

الوعي موزع بين البشر توزيعاً لا يخضع دائماً للسلم الوظيفي.

ولهذا فإن المؤسسة التي تحصر الحكمة في رأس الهرم مؤسسة تصنع عمها بيدها.

والقائد الذي لا يسمع إلا من هم في مستواه يحرم نفسه من جزء هائل من

الواقع.

إن عبارة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ تعلمنا أن الصغر ليس حجة لإلغاء الصوت.

بل ربما كان الصغير يرى تحديداً ما لا يستطيع الكبير رؤيته؛ لأنه قريب من

الأرض التي يمشي عليها الكبير.

الزاوية تصنع المعرفة.

من يقف فوق البرج يرى أفقًا بعيداً.

لكن من يقف عند الأساس قد يرى الشقوق التي لا تُرى من الأعلى.

وكلاهما محتاج إلى الآخر.

القيادة التي تعرف كل شيء وهم.

والأفراد الذين يظنون أن لا قيمة لما يعرفون وهم آخر.

الحكمة في أن تتكامل زوايا النظر.

الفصل الثالث عشر

ذكاء التوقيت

ليست قيمة الكلمة في مضمونها فقط، بل في وقتها.

لو قالت النملة الكلام نفسه بعد مرور الجيش لكان رثاءً لا إنقاذاً.

المعنى قد يكون صحيحاً، لكن الزمن يغير وظيفته.

قبل الكارثة يسمى تحذيراً.

بعدها يسمى تفسيراً.

والفرق بينهما حياة كاملة.

من هنا كانت يقظة النملة يقظة زمنية أيضاً.

إنها لم تر الخطر فقط.

بل رأت أنه يقترب.

وهذا معنى شديد الأهمية في إدارة الحياة.

بعض المشكلات لا تحتاج إلى معرفة أنها موجودة فحسب، وإنما إلى إدراك سرعة

اقتربها.

قد يكون الخطر بعيداً فيحتمل الدراسة.

وقد يكون على الأبواب فلا يحتمل التأخير.

العقل الناضج لا يعرف ماذا يفعل فقط، بل يعرف متى يفعل.

كم من قرارات صحيحة ماتت لأنها اتخذت متأخرة.

وكم من اعتذارات فقدت أثرها لأن أصحابها قالوها بعد أن صلب الجرح.

وكم من إصلاحات جاءت بعد انهيار المؤسسة التي كان يراد إصلاحها.

وكم من كلمات محبة بقيت في الصدر حتى رحل من كان يحتاجها.

التوقيت ليس هامشاً في الحكمة.

إنه جزء منها.

النملة لم تقل:

سنراقب الوضع.

فالجيش متجه نحو الوادي بالفعل.

كانت لحظة حركة.

ولذلك جاء الأمر:

﴿ادْخُلُوا﴾.

الفعل الآن.

وهذا ما يميز الوعي الحي عن المعرفة الباردة.

المعرفة الباردة تقول: نعم، هناك خطر.

أما الوعي الحي فيقول: الآن.

الفصل الرابع عشر

خطاب الخطر بلا صناعة الرعب

لنتأمل نبذة النملة.

المحتوى شديد الخطورة:

قد تتحطمون.

لكن الصياغة ليست هستيرية.

لا نجد تكراراً.

ولا صراحاً لفظياً.

ولا تهويلاً.

ولا أوصافاً مرعبة.

هناك وضوح صارم، ولكن منضبط.

وهذا يفتح موضوعاً من أهم موضوعات الاتصال الإنساني:

كيف نحذر الناس دون أن نحطم قدرتهم على التفكير؟

فالإنسان حين يفزع أكثر من اللازم قد يصبح أقل قدرة على اتخاذ القرار.

ولهذا فإن من واجب من ينقل الخطر ألا يتحول إلى خطر ثانٍ.

هناك من يظن أن شدة التخويف دليل على صدق الحرص.

لكن التخويف المفرط قد يدفع الناس إلى الإنكار أو الشلل أو الفوضى.

أما النملة فربطت الخطر بالفعل المطلوب.

﴿ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ﴾.

ثم بينت السبب.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

حين يكون أمام الإنسان طريق للفعل، يتحول الخوف من قوة شلّ إلى قوة حركة.

وهذا فارق نفسي بالغ الأهمية.

الخوف الذي بلا طريق ينتج هلعاً.

أما الخوف المصحوب بخيار واضح فقد ينتج نجاة.

ومن هنا فإن أفضل خطاب للأزمات ليس الذي يخفي الحقيقة، ولا الذي يغرق

الناس في سوادها، وإنما الذي يعطيهم الواقع مع القدرة.

هذه هي لغة النملة:

الخطر حقيقي.

لكن لديكم ما تفعلونه.

وهكذا يصنع القائد الأمل الواقعي.

ليس الأمل أن يقول: لن يحدث شيء..

بل أن يقول: يمكن أن يحدث، وهذه هي طريقة التعامل معه.

الفصل الخامس عشر

المسكن: فلسفة الحدود الآمنة

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

المسكن ليس فقط مكان راحة.

في الآية هو حد فاصل بين جسد هش وقوة كاسخة.

الحدود هنا تحمي.

وهذا معنى يمتد إلى الحياة النفسية والاجتماعية.

ليس كل انفتاح فضيلة.

وليس كل مسافة جفاء.

هناك أوقات يحتاج الإنسان فيها إلى «مسكن» يعود إليه.

حدود تحمي وقته.

حدود تحمي كرامته.

حدود تحمي أسرته.

حدود تحمي قلبه من الاستهلاك.

والإنسان الذي لا يملك حدوداً قد تتخطم أشياء كثيرة داخله بأقدام أناس «لا يشعرون».

ليس كل من تجاوز حدودك يريد إيذاءك.

ربما لا يدري أصلاً أنه تجاوزها.

ولذلك لا يكون الحل دائماً اتهامه، بل أحياناً بناء المسكن الذي يمنع الأثر.

هذا معنى بالغ القرب من قول النملة:

احموا أنفسكم.

ولا تتهموا الآخرين.

كم يحتاج الإنسان إلى هذه الثنائية!

بعض الناس يحسن حماية الآخرين من اتهاماته، لكنه لا يحمي نفسه منهم.

وبعضهم يحمي نفسه بتحويل الجميع إلى أعداء.

أما النملة فتقدم طريقاً ثالثاً:

حدود واضحة.

وقلب عادل.

الفصل السادس عشر

لم تقل: أنا

من أجمل ما في خطاب النملة غياب ضمير الذات.

لا «أنا».

ولا «لي».

ولا «عندي».

الخطاب كله متجه إلى الجماعة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ﴾.

﴿ادْخُلُوا﴾.

﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾.

﴿لَا يَحِطُّ بِكُمْ﴾.

إنها ذات حاضرة في الفعل، غائبة عن الاستعراض.

وهذه معادلة نادرة.

بعض الناس لا يعمل إلا إذا ظهر اسمه.

وبعضهم يربط الخير باعتراف الآخرين به.

لكن الأعمال التي تبني العالم في الحقيقة ينجز جانب كبير منها أناس لا تسجل
أسماءهم الذاكرة.

أم تربي.

معلم يفتح عقلاً.

عامل يصلح عطلاً.

شخص يحذر من حادث.

طبيب يتخذ احتياطاً.

كاتب يضع فكرة في ذهن قارئ لا يعرفه.

كل هؤلاء قد يمنعون تحطم أشياء كثيرة دون أن يدري بهم أحد.

ليس انعدام الشهرة انعداماً للأثر.

النملة لا اسم لها عندنا.

لكن أثر كلمتها باق.

وهذه عزاء عظيم لكل من يعمل عملاً صالحاً لا تصفق له المنصات.

فالتاريخ المكتوب لا يحتوي كل القيمة التي مرت بالعالم.

هناك أفعال لم تحفظ أسماء أصحابها لكنها حفظت حياة غيرهم.

وإذا كانت الشهرة مقياساً للوجود، لكانت النملة عدماً.
لكن القرآن أعطاها حضوراً لا تملكه أسماء كثيرة من أصحاب التيجان.

الفصل السابع عشر
مجتمع يسمع بعضه بعضاً

قالت النملة.

لكن نجاح التحذير يفترض معنى آخر ضمناً:

أن هناك من يستجيب.

فالكلمة وحدها لا تنقذ إذا لم تجد آذاناً.

وهنا تكتمل دورة السلامة:

رؤية.

قول.

استماع.

استجابة.

أي حلقة تنقطع، يتعطل النظام كله.

إذا رأى الفرد ولم يقل، وقع الخطر.

إذا قال ولم يُسمع، وقع الخطر.

إذا سُمع ولم يُصدق، وقع الخطر.

إذا صدق ولم يتحول إلى فعل، وقع الخطر.

ولذلك فإن صناعة مجتمع آمن ليست في تدريب الناس على الكلام وحده، بل في بناء ثقافة الاستماع.

كم من طفل توقف عن الكلام لأن أحداً كان يسخر من مخاوفه.

وكم من موظف توقف عن إبلاغ الإدارة لأنه تعلم بالتجربة أن من يحمل الخبر السيئ يعاقب.

وكم من امرأة كتمت مشكلة لأنها تعرف أن حديثها سيواجه بالاستخفاف.

حين تعاقب المجتمعات رسول الخطر، فإنها تربي الصمت.

وبعد ذلك يفاجئها الانهيار.

من الحكمة أن نكرم من ينهنا إلى ما لا نحب سماعه، إذا كان صادقاً.

فالخبر المريح ليس بالضرورة خيراً من الخبر المؤلم.

قد يكون الألم الذي يصل مبكراً رحمة.

وصوت النملة كان مزيجاً لو قيس بمحتواه.

هناك احتمال حطم.

لكن جماله أنه جاء قبل الحطم.

الفصل الثامن عشر

منطق الوقاية قبل منطق البطولة

من اللافت أن قصة النملة ليست قصة نجاة بعد الكارثة.

هي قصة كارثة لم تقع.

وهذه القصص أقل إثارة في الخيلة البشرية.

نحن نزهر غالباً بمن ينقذ الناس من النار أكثر ممن منع النار أصلاً.

لأن ما لم يقع لا يُرى.

لكن القرآن يوجه نظرنا هنا إلى بطولة الوقاية.

نملة رأت قبل أن يقع شيء.

فقالت.

وانتهى الأمر.

لا أجساد محطمة.

لا مشهد مأساوي.

لا معركة.

وذلك هو النجاح الحقيقي.

فالقائد العظيم ليس فقط من يحسن إدارة الانهيار، بل من يبني النظام الذي
يمنعه.

والطبيب العظيم لا يفرح بكثرة المرضى، بل يرى قيمة في منع المرض.

والمرابي لا ينتظر الانحراف حتى يبدأ.

والمجتمع الحكيم لا ينتظر الفتنة حتى يبحث عن أسبابها.

في ثقافة البطولة المتأخرة ضجيج كثير.

أما ثقافة الوقاية فهادئة.

لكنها أكثر رحمة.

والتملة تنتمي إلى هذه المدرسة.

لقد كسبت المعركة دون معركة.

وهذا أرقى أنواع الانتصار.

الفصل التاسع عشر

نملة في مواجهة إمبراطورية

المشهد يكاد يكون استعارة بصرية هائلة:

نملة.

وفي الجهة الأخرى مملكة سليمان.

كائن بالغ الصغر.

وفي الجهة الأخرى جيش له من القوة والتنظيم ما له.

لكن القرآن لا يجعل النملة فائضة عن المشهد.

وهذا يقرر معنى عظيماً في الرؤية القرآنية للوجود:

لا شيء من خلق الله حقير لأنه صغير في أعيننا.

المقاييس البشرية مفتونة بالحجم.

المبنى الكبير.

الجيش الكبير.

الثروة الكبيرة.

الجمهور الكبير.

لكن القرآن يلفت النظر مراراً إلى ما لا يلتفت إليه الناس.

والنملة هنا لا تقاس بجسمها.

إنها تحمل في لحظة واحدة من الوعي ما يجعلها مركز المشهد.

وهذا يحرر الإنسان من عبودية «الحجم».

قد تكون فكرتك صغيرة في بدايتها.

وقد تكون دائرتك محدودة.

وقد لا يسمع بك إلا القليل.

لكن القيمة لا تبدأ من العدد.

تبدأ من الحقيقة التي تحملها.

النملة واحدة، لكنها كانت في تلك اللحظة أسبق إلى الوعي من الوادي كله.

والوعي لا يحتاج إلى جسد كبير.

يحتاج إلى قلب حاضر وعقل يقظ.

الفصل العشرون

﴿قَبَّسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾: حين تتحول الكلمة إلى شكر

لم يقف أثر كلام النملة عند إنقاذ النمل.

بل انتقل إلى قلب سليمان نفسه.

﴿قَبَّسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

هذا انتقال بالغ الجمال.

صوت صغير في الوادي قاد ملكاً نبياً إلى دعاء.

كلمة مخلوق ضعيف حركت في قلب صاحب السلطان معنى الشكر.

وهذا يكشف أن الله قد يفتح للإنسان أبواب المعرفة من حيث لا يتوقع.

ليس المعلم دائماً من هو أعلى منك.

قد يعلمك موقف.

طفل.

فقير.

خصم.

حيوان.

حادثة عابرة.

سؤال بسيط.

وكلما ازداد الإنسان علماً، احتاج إلى تواضع أكبر حتى يبقى قابلاً للتعلم.

سليمان الذي علمه الله منطق الطير، وآتاه من الملك، لم يكن استغناؤه بما عنده مانعاً من أن تؤثر فيه كلمة نملة.

وهذا من جمال العلم إذا اتصل بالعبودية:

يزيد الإنسان قابلية للشكر، لا شعوراً بالاكتماء.

لقد كان يمكن أن يتعامل مع قدرته على سماع النملة بوصفها دليلاً آخر على تفوقه.

لكنه أعاد النعمة إلى مصدرها:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

وهكذا تكون القيادة النبوية.

كلما اتسعت القدرة اتسع الشكر.

لا الغرور.

وكلما ظهر لها شيء من عجائب العالم قادها ذلك إلى الله.

لا إلى تضخم الذات.

ومن عجيب المناسبة أن النملة كانت مشغولة بحماية قومها، وسليمان بعد سماعها صار

مشغولاً بحاسبة نفسه أمام النعمة:

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

كأن صوت المسؤولية في الأسفل أيقظ صوت المسؤولية في الأعلى.

نملة مسؤولة عن جماعتها.

وملك يسأل الله أن يعينه على المسؤولية عن نعمته.

الفصل الحادي والعشرون

عندما يصبح الضعيف معلماً للقوي

من أكثر الجوانب إثارة في المشهد أن العلاقة بين النملة وسليمان لا تسير في اتجاه واحد.

ظاهرياً، سليمان هو من يملك العلم والسلطة.

لكن النملة تضع أمامه في اللحظة معنى يستحق الابتسام والتأمل.

وهنا تتهاوى الفكرة الساذجة التي تجعل المعرفة تسير دائماً من الأعلى إلى الأسفل.

قد يتعلم الكبير من الصغير.

والحاكم من المحكوم.

والعالم من العامي.

والوالد من الطفل.

والمعلم من الطالب.

ولا ينتقص هذا من مكانته.

بل القدرة على التعلم من الأدنى موقعاً من علامات الرسوخ.

فالإنسان الهش يحتاج إلى أن يكون دائماً هو المعلم حتى يحمي صورته عن نفسه.

أما الواصل فيستطيع أن يقول:

وجدت هنا شيئاً أتعلّمه.

والقيادات التي تفقد هذه المرونة تبدأ في الانفصال عن الواقع.

حين يقتنع القائد بأن موقعه دليل على أنه أعرف من الجميع، تتحول المؤسسة من

عقل جمعي إلى عقل فردي.

وهذا خطر.

لأن الواقع أكبر من أن يراه شخص واحد.

النملة ترى الأرض.

وسليمان يرى الجيش.

وكلا المنظورين جزء من المشهد.

الفصل الثاني والعشرون

الجملة التي لم تذكره سليمان

يمكن للضعيف أن يتحول بسهولة إلى أسير للحرارة.

فعندما يعيش الإنسان في عالم يملك فيه الآخرون قدرة أكبر منه، قد يفسر كل شيء باعتباره مؤامرة من الأقوياء عليه.

لكن جملة الوادي لم تفعل.

سمّيت سليمان باسمه.

وحذرت قومها من الحطم.

ثم أضافت:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هذه الجملة تحرر الضعيف من عبودية الكراهية.

فالضعيف يحتاج إلى حماية نفسه من القوي، نعم.

لكنه يحتاج كذلك إلى حماية قلبه من أن يصبح كل العالم عدواً في نظره.

ليس كل اختلاف في القوة ظلماً.

وليس كل ضرر مقصوداً.

وليس كل كبير متعمداً لسحق الصغير.

هذه النظرة لا تلغي مقاومة الظلم حين يقع، لكنها تمنع اختراع ظلم لم يقع.

والإنصاف قوة داخلية.

من يستطيع أن يكون عادلاً مع من يخافه يمتلك نفسه.

أما من يجعله مخاوفه يوزع الاتهامات بلا بينة، فقد صار خوفه هو الذي يقوده.

النملة كانت خائفة على قومها، لكنها لم تكن أسيرة لخوفها.

رأت بوضوح.

وتكلمت بوضوح.

وحكمت بإنصاف.

وهذا توازن نفسي رفيع.

الفصل الثالث والعشرون

لغة المسؤولية لا لغة التلاوم

لم تقل النملة:

من الذي ترككم خارج المساكن؟

ومن المسؤول عن عدم الاستعداد؟

ومن أخطأ؟

الأزمة لم تكن وقت محاسبة.

كانت وقت نجاة.

هناك لحظات يكون البحث فيها عن المذنب ترفاً خطيراً.

لا يعني ذلك إلغاء المحاسبة، ولكن يعني ترتيب الأولويات.

إذا اشتعل المنزل، لا تبدأ بالسؤال: من ترك الغاز مفتوحاً؟

أخرج الناس أولاً.

ثم حقق.

إذا أصيب الإنسان، أوقف النزيف.

ثم ناقش كيف وقع الجرح.

النملة فهمت فقه اللحظة.

أعطت الأولوية للحياة.

وهذه قدرة تفتقدها بعض العقول؛ إذ تستسلم لحاجتها إلى تفسير الماضي بينما

المستقبل ينهار أمامها.

القيادة تحتاج إلى تمييز ثلاث لحظات:

لحظة النجاة.

ولحظة الفهم.

ولحظة المحاسبة.

خلط هذه اللحظات قد يزيد الكارثة.

وفي وادي النمل كانت اللحظة الأولى واضحة:

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

الفصل الرابع والعشرون

اليقظة تبدأ من الملاحظة

قبل القول كانت هناك عين رأت.

وقبل التحذير كان هناك انتباه.

وهذا يردنا إلى أصل كل قيادة:

اليقظة.

لا يستطيع المرء أن يحذر من شيء لم يره.

ومن هنا فإن أول واجبات المسؤولية أن تكون حاضراً في الواقع.

الغافل قد يكون طيب القلب، لكنه لا ينقذ أحداً في اللحظة التي تحتاج إلى انتباه.

وقد يكون للإنسان نية حسنة، لكن النية لا تعوض غياب الملاحظة.

اليقظة فن أن ترى التغير قبل أن يتحول إلى أزمة.

صوت مختلف.

سلوك جديد.

غياب شخص.

مؤشر صغير.

شق في جدار.

فتور في علاقة.

تراجع في أداء.

كل الكوارث الكبرى تقريباً لها إشارات أصغر منها.

المشكلة أن الإنسان يعتاد الموجود حتى يفقد القدرة على ملاحظة التحول.

أما النملة فرأت الحركة القادمة.

وهذا يجعلها قرينة عجيبة لمشهد آخر في السورة نفسها: سليمان الذي قال:

﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾.

هناك ملك يلاحظ غياب فرد من جيشه.

وهنا نملة تلاحظ اقتراب جيش من جماعتها.

كأن السورة كلها تعلمنا أن القيادة تبدأ من العين التي لا تنام عن التفاصيل.

سليمان لاحظ الغائب.

والنملة لاحظت القادم.

وبين الملاحظتين تقوم حضارة كاملة من الوعي.

الفصل الخامس والعشرون

من «مالي لا أرى الهدهد» إلى «قالت نملة»

في سورة النمل مشهذان متجاوران في المعنى وإن اختلفت تفاصيلهما.

الأول قائد عظيم يسأل عن فرد صغير في منظومته:

﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾.

والثاني فرد صغير يحمل هم جماعته:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

يا لهذه الثنائية!

في الأول: القيادة ترى الفرد.

وفي الثاني: الفرد يرى الجماعة.

وإذا اجتمع هذان المعنيان قامت منظومة ناضجة:

قائد لا يضيع عنده أحد.

وفرد لا يقول: وما شأنى بالآخرين؟

هذا ربما من أبداع نماذج التكامل التنظيمي التي يمكن استلهامها من السورة.

فساد الجماعات يبدأ غالباً من أحد خللين:

إما قيادة لا ترى الأفراد.

وإما أفراد لا يرون الجماعة.

حين لا يرى القائد الفرد يتحول الناس إلى أرقام.

وحين لا يرى الفرد الجماعة تتحول المؤسسة إلى سوق مصالح شخصية.

أما هنا فكل اتجاه يحمل مسؤولية نحو الآخر.

سليمان يسأل عن الهدهد.

والتملة تنادي التمل.

الهرم لا يستهلك القاعدة.

والقاعدة لا تتصل من الهرم.

كل كائن حاضر في موقعه.

كل عين مفتوحة.

كل وظيفة ذات قيمة.

الفصل السادس والعشرون

الحضارة التي لا تسحق صغارها

من الممكن أن نقرأ المشهد أيضاً بوصفه سؤالاً حضارياً:

كيف تمر القوة دون أن تسحق الضعف؟

الجيوش، والمدن، والمشروعات، والتقنيات، والأسواق، والمؤسسات؛ كلها أشكال من القوة.

والتقدم الحقيقي ليس في أن تكبر قدرتنا فقط، بل في أن تكبر معها حساسيتنا تجاه من يمكن أن يتضرر منها.

الحضارة التي تبني طريقاً هائلاً ثم لا ترى الذين اقتلعت بيوتهم ليست كاملة الوعي.

والاقتصاد الذي يحقق أرقاماً مذهلة بينما يحطم الضعفاء «دون أن يشعر» يحتاج إلى مراجعة أخلاقية.

والتقنية التي تزيد الكفاءة لكنها تسلب الإنسان كرامته ليست تقدماً خالصاً.

كل قوة جديدة تحتاج إلى سؤال النملة:

من الذي قد يُحطم؟

ليس هذا رفضاً للقوة.

سليمان لم يتخل عن جيشه.

بل هو دعوة إلى ترويض القوة بالوعي.

أن يكون الكبير قادراً على الحركة دون أن يجعل الصغير ثمناً طبيعياً لحركته.

الفصل السابع والعشرون

أخلاق من يعيش قريباً من الأرض

النملة قريبة من الأرض.

ومن هذه الزاوية رأت المشهد بطريقة مختلفة عن الجيش.

وهذا يذكرنا بأن المعرفة مرتبطة بالموقع.

من يعيش النتائج يرى أشياء لا يراها من يصنع القرارات.

من يقف في آخر الصف يعرف عن النظام شيئاً قد لا يعرفه من يقف في أوله.

الفقراء يعرفون عن الاقتصاد من جهة أثره في الخبز والسكن.

والطلاب يعرفون عن التعليم من جهة الصف.

والمرضى يعرفون عن الصحة من جهة الانتظار والوجع.

والموظفون يعرفون عن الإدارة من جهة تطبيق قراراتها اليومية.

لا يعني ذلك أن رؤيتهم كاملة، لكنها جزء لا يحجز حذفه.

إن صوت «من يعيش قرب الأرض» ضروري لتصحيح رؤية من يقف في

الأعلى.

النملة لا تعرف كل ما يعرفه سليمان.

لكنها تعرف شيئاً لا ينبغي أن يغيب عنه:

نحن هنا.

وقد تتحطم أجسادنا.

الحكمة لا تعني أن يمتلك طرف الحقيقة كلها.

بل أن يجتمع ما يراه كل طرف.

الفصل الثامن والعشرون

لا أحد أصغر من أن يحمل أمانة

ليس في الآية شيء يدل على أن النملة توقفت لتسأل:

هل أنا مؤهلة؟

هل سيستجيبون؟

هل صوتي كافٍ؟

حين بان الواجب، تكلمت.

وكم يعطل الإنسان نفسه لأنه يظن أن القيمة تحتاج أولاً إلى منصة كبيرة.

ينتظر الاعتراف.

الشهادة.

اللقب.

المنصب.

الفرصة المثالية.

ثم تمضي الحياة.

لكن كثيراً من الأثر يبدأ من المساحة التي تحت يدك الآن.

النملة لم تنقذ العالم.

أنقذت واديهها.

ولم تطلب أكثر من ذلك.

وهذا كافٍ ليكون فعلها جديراً بأن يسجله القرآن.

ربما كانت إحدى مشكلات الإنسان أنه يحتقر الخير الصغير لأنه لا يشبه أحلامه

الكبيرة.

يريد أن يغير أمة، فلا يصلح بيته.

يريد أن يخاطب الملايين، فلا يصغي لمن بجواره.

يريد مشروعاً خالداً، فيهمل العمل المتاح.

أما النملة فاشتغلت بنطاق مسؤوليتها.

وهذا هو الطريق الطبيعي لكل أثر عظيم:

ابدأ من الوادي الذي أنت فيه.

الفصل التاسع والعشرون

الكلام الذي يختصر رؤية كاملة للعالم

خطاب النملة قصير جداً، لكنه يحمل وراءه تصوراً كاملاً:

هناك جماعة تستحق الحماية.

هناك خطر يجب الاعتراف به.

هناك فعل وقائي ممكن.

هناك قوة أكبر يجب التعامل معها بواقعية.

وهناك عدل يوجب ألا تنسب إليها نية لا تعرفها.

هذه ليست جملة عابرة.

إنها منظومة قيم مضغوطة.

وهذه إحدى عجائب البيان القرآني: أن يضع أمامك عبارة محدودة الألفاظ، ثم

تظل تفتح أبواباً من المعاني.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

لو حذف القول لانتهد معظم هذه المعاني.

ولو حُذفت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لفقد المشهد واحدة من أرفع لمسات الإنصاف.

ولو حُذف ﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾ لقلّ وضوح الإجراء.

كل كلمة في موقعها تؤدي وظيفة.

ولذلك فإن التأمل القرآني ليس أن نهرب من الألفاظ إلى معانٍ بعيدة، بل أن

نعود إلى الألفاظ حتى نكتشف كم كان القريب منها واسعاً.

الفصل الثلاثون

ماذا لو سكنت النملة؟

من أنفع طرق فهم الأشياء أن نتخيل غيابها.

ماذا لو رأت النملة الجيش ولم تقل شيئاً؟

ربما نجا بعضها.

وربما وقع الحطم.

ولكن الأهم أن المشهد كله كان سيتحول من قصة مسؤولية إلى قصة صمت.

وهنا ندرك أن التاريخ يتغير أحياناً بكلمة لم يكن أحد ملزماً ظاهرياً أن يقولها.

كم من حياة كان يمكن أن تنجو لو تكلم شاهد؟

وكم من فساد تمدد لأن من عرفوا صمتوا؟

وكم من خطأ صار ثقافة لأن أول من رآه اعتبر الكلام عنه مخاطرة لا تستحق؟

الصمت ليس حياداً دائماً.

أحياناً يكون قراراً له أثر.

والنملة في الآية اختارت ألا تكون محايدة أمام خطر يهدد قومها.

لكن كلامها كان خالياً من العدوان.

وهذا مهم.

ليس البديل عن الصمت هو الصراخ.

هناك طريق ثالث:

الكلمة الدقيقة.

الفصل الحادي والثلاثون

«وهم لا يشعرون» ومأساة الضرر غير المقصود

من أكثر أشكال الألم تعقيداً أن يؤذيكَ إنسان لا يعلم أنه يؤذيكَ.
لأنك لا تستطيع أن تصفه بسهولة بالعدو، وفي الوقت نفسه لا تستطيع إنكار الأثر.

وهذه المنطقة الرمادية موجودة في الحياة كلها.

يقول لك أحدهم كلمة يراها بسيطة وتظل معك سنوات.

يتخذ مسؤول قراراً إدارياً يراه منطقيّاً، لكنه يضغط على من في الأسفل.

يعيش إنسان بطريقته المعتادة، بينما يدفع أقرب الناس إليه ثمناً نفسياً لا يراه.

كم من «حطم» يحدث في العالم تحت عنوان:

لم أكن أقصد.

والآية لا تجعل عدم القصد سبباً لتجاهل الخطر.

النملة لا تقول:

بما أنهم لا يشعرون فلا حاجة للدخول.

بل تفعل العكس.

تحتاط من الأثر مع حسن تفسير النية.

وهذا توازن يمكن أن يغير كثيراً من علاقاتنا:

ليس مطلوباً أن تتهم الآخر حتى تضع حداً للضرر.

يكفي أن تعرف أن أثره يؤذيكَ.

فاحم نفسك.

وتكلم إن أمكن.

لكن لا تضيف إلى الألم ظمأً جديداً في تفسير قلبه دون بينة.

الفصل الثاني والثلاثون

الإنذار المبكر: أعظم وظيفة يؤديها الوعي

هناك أنظمة كاملة في عالم البشر بنيت على فكرة الإنذار المبكر.

كلما وصل التحذير قبل الخطر، اتسعت مساحة القرار.

وكلما تأخر، ضاقت.

النملة كانت جهاز إنذار حياً.

لكنها لم تعتمد على آلة.

اعتمدت على الحضور.

وهذا يذكرنا بأن أكثر أنظمة الأمان تطوراً تظل بحاجة إلى إنسان ينتبه.

الأرقام قد تكون أمام الجميع، ولا يقرأ معناها أحد.

المؤشرات موجودة، لكن العقل الغائب لا يلتقطها.

من هنا فاليقظة ليست جمع المعلومات فقط، بل القدرة على تفسير الإشارة قبل

أن تتحول إلى نتيجة.

ربما كانت الأرض تهتز قليلاً قبل انهيار كبير.

وربما يتغير مزاج الابن قبل انحرافه.

وربما تبدأ المؤسسة بفقدان أفضل أفرادها قبل انهيار ثقافتها.

وربما نتكرر شكوى صغيرة قبل تحولها إلى أزمة.

الغفلة تعلمنا أن الإشارة الصغيرة تستحق عيناً كبيرة.

الفصل الثالث والثلاثون

درس للكاتب والمفكر

وللكاتب نصيب خاص من عبارة:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

فما الكتابة في أحد وجوهها إلا أن ترى شيئاً ثم تقول للناس:

انتبهوا.

ليس الكاتب نبياً بالمستقبل، ولا مالئاً للحقيقة المطلقة، لكنه قد يلتقط شقاً في

جدار الزمن.

وقد تكون مهمته أن يضع لغة لما يشعر به الناس ولا يستطيعون قوله.

والكاتب النليل يشبه نملة الوادي في معنى من المعاني:

لا يتاجر بالخوف.

ولا يحتقر جمهوره.

ولا يختلق نيات للآخرين.

يرى.

يحلل.

يقول.

ويترك للناس طريقاً للفاعل.

أما الكتابة التي لا تفعل إلا تضخم القلق، فقد تكون جزءاً من المشكلة.

إن الكلمة التي تتخذ ليست أكثر الكلمات صخباً.

بل أكثرها دقة ومسؤولية.

الفصل الرابع والثلاثون

درس للأسرة

تخيل بيتاً يحمل كل فرد فيه شيئاً من حس النملة.

الأب ينتبه إلى التغير الصغير في أبنائه.

والأم ترى ما لا يراه الآخرون.

والأبناء يشعرون أن لهم حق الكلام.

إذا رأى أحدهم خطراً قال.

وإذا قال أحدهم استمع إليه.

ما مقدار الأمان الذي يمكن أن ينشأ؟

الأسر لا تنهار دائماً بسبب كارثة مفاجئة.

أحياناً تراكم أشياء صغيرة لم يقلها أحد.

وجع صامت.

إهمال بسيط.

كلمة تكرر.

مسافة تتسع.

حتى تأتي لحظة يكون فيها الإصلاح أصعب.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ تعلم الأسرة أن الصوت الصغير يجب ألا يُحتقر.

ربما كان أكثر أبنائك صمتاً هو الذي يرى أعمق مشكلة.

وربما كانت شكوى تبدو لك بسيطة علامة على أمر أكبر.

والبيت الذي يسمح بالكلام المبكر يقل فيه انفجار الكلام المتأخر.

الفصل الخامس والثلاثون

درس للمؤسسة

يمكن للمؤسسات أن تقرأ الآية كأنها نظام سلامة كامل.

يجب أن يمتلك كل فرد حق رفع الإنذار.

يجب ألا يعاقب حامل الخبر السيئ.

يجب أن تكون التعليمات واضحة عند الأزمات.

يجب التفريق بين الخطأ المتعمد والأثر غير المقصود.

ويجب أن تصل أصوات الأطراف الأضعف إلى مركز القرار.

إذا فقدت المؤسسة هذا كله، يمكن لجيش نجاحها نفسه أن يحطم أجزاء منها.

قد تحقق نمواً سريعاً، لكنه يحرق الموظفين.

وقد توسع إنتاجها، لكنه يقتل الجودة.

وقد تزيد مركزية القرار، لكنها تسحق المبادرة.

كل تقدم يخلق مخاطره الخاصة.

ولذلك فإن النملة لا تتقف ضد الحركة.

إنما تطلب من المجتمع أن يعرف كيف يتعامل معها.

الفصل السادس والثلاثون

درس للدولة والقوة العامة

في السياسة والإدارة العامة تزداد أهمية هذا المعنى.

فالدولة بطبيعتها قوة ضخمة مقارنة بالفرد.

والقرار العام يشبه أحياناً حركة الجيش: واسع الأثر، سريع الانتشار، وقد يصل إلى من لا يعرف واضع القرار أسماءهم.

لذلك تحتاج السلطة العادلة دائماً إلى آليات تجعل «صوت النملة» مسموعاً.

شكوى الفرد.

ألم الفئة الصغيرة.

أثر القانون على الهامش.

مشكلة القرية البعيدة.

إذا فقدت الدولة القدرة على سماع هذه الأصوات، فقد تسبب في الحطم وهي

تظن أنها تبني.

وإذا حاصر القادة أنفسهم بالمدح، فلن يسمعوا إلا وقع خطواتهم.

بينما الحكمة أن يصل إليهم أيضاً صوت من يخشى تلك الخطوات.

الفصل السابع والثلاثون

ليس الضعف عجزاً عن الفعل

التملة ضعيفة أمام الجيش.

لكنها ليست عاجزة.

وهذا فرق مهم.

الضعف وصف لموازن القوة.

أما العجز فهو توقف القدرة على صناعة أي أثر.

قد لا تستطيع تغيير القوة القادمة، لكن تستطيع تغيير موقعك منها.

قد لا توقف العاصفة، لكن تستطيع أن تبحث عن مأوى.

قد لا تغير الآخرين، لكن تستطيع وضع حدود.

قد لا تملك القرار الكبير، لكن تملك الكلمة التي تحمي دائرتك.

وهذا يحرر الإنسان من ثنائية قاتلة:

إما أن أتحكم في كل شيء، وإما أنني لا أستطيع شيئاً.

بين الاثنين مساحة ضخمة من الفعل الممكن.

التملة لم توقف جيش سليمان.

لكنها صنعت ما يكفي:

غيرت موقع جماعتها بالنسبة إليه.

وهذا معنى عميق في الحكمة العملية:

إذا عجزت عن تغيير الواقع، غير طريقة تعرضك له.

الفصل الثامن والثلاثون

الشجاعة الهادئة

لا تبدو النملة في الآية بطلة بالمعنى الصاخب.

لا مواجهة.

لا تحدّ.

لا خطبة.

لكن هناك شجاعة من نوع مختلف.

شجاعة أن ترى الخطر دون إنكار.

وشجاعة أن تتكلم.

وشجاعة أن تتحمل مسؤولية الآخرين.

وشجاعة أن تبقى عادلة تحت الخوف.

هذه كلها أشكال من البطولة لا تحتاج إلى سيف.

وأحياناً تكون أصعب من المواجهة.

فالإنسان قد يقدر على الصراخ، ولا يقدر على الإنصاف.

وقد يقدر على الهجوم، ولا يقدر على الاعتراف بضعفه.
وقد يقدر على النجاة بنفسه، ولا يقدر على حمل هم الآخرين.
أما النملة فجمعت ذلك في لحظة واحدة.

الفصل التاسع والثلاثون

حين تكون النجاة فعلاً جماعياً

هناك في العبارة كلها ضمير الجمع:

﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

النجاة ليست مشروعاً فردياً.

وهذا يعيدنا إلى معنى عميق في القرآن والحياة: الإنسان لا ينجو وحده في كثير من

المواقف.

قد يملك مالاً، لكن الأمن عام.

وقد يملك بيتاً، لكن البيئة مشتركة.

وقد يملك معرفة، لكن المجتمع الذي يعيش فيه يؤثر فيه.

ولهذا فإن الأمانة ليست فقط خلافاً أخلاقياً؛ أحياناً هي سوء تقدير للواقع.

من يترك السفينة تغرق لأنه حصل على غرفة جيدة فيها لم يفهم معنى السفينة.

والنملة فهمت الوادي.

فلم تقل:

مسکني.

بل:

﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾.

الفصل الأربعون

لماذا خُلِدَت هذه النملة؟

ليس لها اسم في الآية.

ولم تبن قصرًا.

ولم تقد جيشًا.

ولم تملك ثروة.

ولم تكتب كتابًا.

قالت جملة واحدة.

لكنها قالتها في اللحظة الصحيحة، للناس الصحيحين، بالمعنى الصحيح، وللغرض الصحيح.

ربما تكون هذه هي الإجابة.

الخلود الحقيقي لا يحتاج دائمًا إلى كثرة الأفعال.

قد تحتاج الحياة منك في لحظة ما إلى كلمة واحدة صادقة.

وإذا قلتها حيث ينبغي، فقد يكون أثرها أكبر من أعوام كاملة من الكلام.

النملة لم تكن تبحث عن الخلود.

ولهذا خلد قولها.

كانت تبحث عن النجاة لقومها.

حفظ الله كلمتها في كتابه.

وهنا سر بديع من أسرار العمل الخالص:

حين ينسى الإنسان نفسه في المعنى الكبير، قد يبقى أثره أكثر مما يبقى أثر من

قضى عمره يصنع صورته.

خاتمة

قالت نملة... فماذا نقول نحن؟

- في ظاهر المشهد نملة تحذر قومها من جيش.
- لكن حين تتأمل طويلاً نجد أماننا عالمًا كاملاً من القيم.
- نملة رأت.
- فلم تغفل.
- وعرفت.
- فلم تحتكر المعرفة.
- وخافت.
- فلم تفقد توازنها.
- وتكلمت.
- فلم تكثر.
- وحذرت.
- فلم تهوّل.

وأمرت.

فلم تستعرض سلطتها.

وحمت قومها.

فلم تنشغل بنفسها.

ورأت القوة القادمة.

فلم تحتقر نفسها.

وخافت من أثرها.

فلم تتهم نيتها.

وقالت:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم سمعها سليمان.

فتبسم.

ثم قاده الكلمة الصغيرة إلى الدعاء الكبير:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

وهكذا يلتقي في المشهد أصغر ما تقع عليه العين بأكبر ما يمكن أن يحمله القلب.

ثملة تحمل مسؤولية وادٍ.

وملك يحمل مسؤولية نعمة.

وكل واحد منهما حاضر في مقامه.

إننا نحتاج إلى أن نقرأ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ لا بوصفها تفصيلاً لطيفاً في قصة سليمان، بل بوصفها نافذة على فلسفة كاملة في الوجود الإنساني:

أن تكون يقظاً.

أن ترى من حولك.

أن تقول حين يجب القول.

أن تحول المعلومة إلى حماية.

أن تعرف حدود قوتك.

أن تحسن تقدير الخطر.

أن تضع حدوداً تحميك.

أن تكون منصفاً حتى تحت التهديد.

أن تسمع الضعيف إذا كنت قوياً.

وإذا نظن أن صغر موقعك يعفيك من المسؤولية إذا كنت ضعيفاً.

في العالم دائماً جيوش تمر.

ودائماً وديان صغيرة.

ودائماً أشياء يمكن أن تتحطم دون قصد.

ودائماً أصوات ترى ذلك قبل وقوعه.

ويبقى السؤال الذي تتركه الآية مفتوحاً في وجه كل فرد، وكل أسرة، وكل مؤسسة، وكل قائد، وكل دولة:

هل يوجد بيننا من يرى؟

ثم السؤال الأصعب:

إذا رأى، هل يقول؟

ثم السؤال الأشد:

إذا قال، هل نسمعه؟

فبين رؤية الخطر وسماع التحذير تقع مساحة النجاة كلها.

ولعل واحدة من أجمل الرسائل التي يخرج بها القارئ من هذا المشهد هي أن الله

قد يجعل للكلمة الصادقة وزناً لا يساوي حجم قائلها.

فلا تستصغر صوتاً لأن صاحبه صغير.

ولا تستصغر نفسك إذا وجدت أنك الوحيد الذي رأى ما يستحق أن يقال.

ولا تجعل الخوف من القوة يسلبك عدلك.

ولا تجعل القوة تنسيك من يمشون قريباً من الأرض.

وتذكر دائماً:

كانت هناك مملكة عظيمة يقودها سليمان.

وكان هناك جيش لا يكاد يحصى.

وكان هناك وادٍ كامل.

لكن القرآن حين أراد أن يضع علامة على تلك اللحظة قال:

﴿قَالَتْ ثَمَلَةٌ﴾.